

التفاعل الثقافي في نظرية الترجمة ما بعد الكولونيالية: بين تجاذبات الأنا وإكراهات الآخر

Intercultural Interaction in Post-colonial Translation Theory; between Ego Interactions and Other's Compulsions

نور الهدى رابحي

مخبر الدراسات المصطلحية والمعجمية، جامعة يحي فارس، المدية، الجزائر

rabehi.nourelhouda@univ-medea.dz

تاريخ الاستلام: 2023/12/16 تاريخ القبول: 2024/07/12 تاريخ النشر: 2024/12/22

ملخص:

تتوسّل هذه الورقة البحثية تقديم تصوّر مُغاير لطبيعة العلاقة الحوارية، التفاعلية بين قطبي الثنائية الغيرية "الأنا" و"الآخر" المتأرجحة بين حدي التقارب والتجاذب عبر تجاوز الطرح الأولي السائد المُشبع بالفكر الكولونيالي أحادي القطب الذي يقتصر الإحالة على قسم فرعي يشي ضمناً بدونية نصوص "الآخر" مقابل نصوص "الأنا" النموذجية؛ كضرورة مُلحّة استدعتها إعادة القراءة المُتفحّصة لموضوعة "التفاعل الثقافي" المحورية في نظرية الترجمة ما بعد الكولونيالية وذلك بوصفها إحدى أوجه التدليل على مناطق الاتصال: أي تلك الفضاءات الاجتماعية التي تلتقي فيها الثقافات المُتباينة، فتتصادم وتتصارع فيما بينها، وفقاً لعلاقات هيمنة وخضوع غير متماثلة، فضلاً عن مُكاشفة الأدوار التقليدية المُثقلة بالتّحيّزات الكامنة في كنف الفعل التّرجمي خصوصاً فيما تعلق الأمر بهدفه الأُوحد البريء نسبياً المُتمثّل في إقامة رابطة تآزرية تلتحم فيها الثقافات بعضها ببعض، الذي يُخال للدارسين من الوهلة الأولى عدم وجود أيّة قرائن تصل بين الترجمة كعملية نقل طبقات المعنى المترسبة في ثنايا النصوص وبين البعد الوسائطي الإمبريالي الذي تواطأت فيه العملية التّرجمية وروجت له في أحيان كثيرة كبديل عن التبادل والتلاقح المعرفي.

الكلمات المفتاحية: التفاعل الثقافي؛ المُثاقفة؛ نظرية الترجمة ما بعد الكولونيالية؛ الأنا؛ الآخر.

Abstract:

This research paper seeks to present an alternative perspective on the dialogical and interactive nature of the relationship between the poles of the "Ego" and the "Other." This relationship oscillates between convergence and attraction by transcending the initial dominant discourse, which is steeped in a colonial mindset that limits references to a subcategory that implicitly suggests the inferiority of the "Other's" texts compared to the exemplary texts of the "Ego." This need arises from

a re-examination of the pivotal theme of "cultural interaction" in postcolonial translation theory, which is one of the ways to illustrate contact zones—those social spaces where disparate cultures meet, clash, and grapple with each other within asymmetrical power relations. Additionally, it unveils the traditional roles laden with inherent biases within the act of translation, particularly concerning its relatively innocent sole objective of establishing a synergistic bond where cultures merge. Initially, scholars might perceive no apparent connections between translation as a process of conveying the layered meanings embedded in texts and the imperialistic intermediary dimension that the translation process has often colluded with and promoted as an alternative to knowledge exchange and cultural intermingling.

Keywords: Intercultural Interaction; Acculturation; Post-Colonial Translation Theory; Ego; The Other.

1. مُقَدِّمَة:

مُنيت التَّرْجَمَة الأدبِيَّة بالنَّصِيب الأوفَر من دراسات النَّقَاد داخل الدوائر والنقاشات الأكاديمية خصوصاً في القرن العشرين؛ نظراً للوظيفة الحضارية التي تصبو جاهدة إلى تحقيقها انطلاقاً من وهج مبدأ حوار الثقافات، وهي خاصية تخولها من الظهور كقراءة غير تقليدية تقوم بضيافة معانٍ جديدة للنص الأصلي، حيث لم يعد معناها إجرائياً مقتصرًا على النشاط التكافؤي الذي يقوم به المترجم من تلبس المعنى اللساني الأوّل وإبدال قيمه الثقافية مرة ثانية في قالب لغوي تختلف أنظمة وحداته اللسانية عن اللغة المنقول عنها، بل تعدت النشاط التُّرجي إلى إعادة خلق نصٍ جديد لا ينفلت من رقابة المخزون النصي الأصلي وهو حدث لا يمكن تجاوزه معرفياً، الشأن الذي أوقع منظري التَّرْجَمَة في وضع إشكالي سيما بعد ظهور النظريّة ما بعد الكولونيالية ممّا جعلهم يشككون في حيادية وبراءة العملية التُّرجمية وعدم تلبسها ببرائن الإيديولوجيا الكولونيالية وسياستها التي توغلت في الأنظمة الثقافية، استيعاباً منهم لصعوبة إيجاد مقابلات لغوية تتجلى عبرها الخصوصيات الثقافية للآخر، إذ يجوز لنا قول ثقافة بدلا من لغة خلال النشاط التُّرجمي تبعاً لتوجُّه منظرو دراسات التَّرْجَمَة ما بعد الكولونيالية التي تتوخى السياق السوسيو-ثقافي للنصوص المنقولة من لغة إلى لغة أخرى وكذا رصد الأبعاد الإيديو-ثقافية المتوارية خلف الزركشات التُّرجمية خدمة للمشروع التوسعي الإمبريالي ومن ثم الإعلاء من ثقافة الأنا المركزية في مقابل الحط من ثقافة الآخر الهامشية عن طريق هيمنة اللغة، كلّ هذا يندرج ضمن ما يسمى

بعملية التفاعل الثقافي كإحدى أوجه تبادل القيم الثقافية بين حضارتين متميزتين لفك العزلة عن بعضهما البعض، حتى تكون مقولة وسطية للعملية الترجمية تنغيا مثقافة متكافئة بين كل من الأنا التي تأبى الانفتاح المطلق حتى الحلول في ثقافة الآخر الذي هو بدوره يطمح إلى إكراه الآخر بالنسبة إليه ويلغي التبادل الفعال بينه وبين الثقافة المستهدفة، في ظل هذا التجاذب الحضاري تتبلور إشكالية بحثنا على النحو التالي:

ما المقصود بنظرية الترجمة ما بعد الكولونيالية وسياقات ظهورها على الساحة الفكرية؟ كيف انزاح النشاط الترجمي عن مساره الحوارى المتكافئ بين الحضارات بغية إقامة رابطة تأزيرية تلتحم فيها الثقافات بعضها ببعض؟ ما مدى قدرة الفعل الترجمي على التعالي عن برائن الإيديولوجيا الكولونيالية؟ وهل تمكنت مقولة التفاعل الثقافي المثقلة بالأبعاد الإمبريالية من تأسيس علاقة حوارية قوامها تكافؤ قيم الأنا الثقافية مع الآخر دونما اختزالية؟

2. من الترجمة الأدبية إلى نظرية الترجمة ما بعد الكولونيالية

جرى في العرف البحثي حين توصيف الترجمة كمرحلة أولية؛ اقتصار جل الباحثين على عملية النقل التي تتميز بها تلك الأخيرة من حيث هي الوظيفة الأولى لها، بمعنى الاكتفاء بالبعد الوظيفي المتلخص في اعتبارها أداة لنقل جملة المعاني التي يكتنزها النص الأصلي الأول إلى نص ثانٍ بلغة غير اللغة المترجم عنها، لهذا نجد جمهور الدارسين يعرفون عملية الترجمة كمستوى أولي على أنّها "تعني أن يقوم المترجم بتحويل نص مكتوب أصلي Original وهو ما يسمى بالنص المصدر Source Text في اللغة اللفظية Verbal الأصلية إلى نص مكتوب يسمى النص المستهدف Target Text وهذا النوع ينتهي إلى ما يسمى بالترجمة بين لغتين" (عناني، 2003، صفحة 05)، أي أنّ عملية الترجمة في هذا القول المجتزأ مهما تعددت أنواعها وأصنافها فهي لا تخرج عن تصميم إطارها الأول ومحور ارتكازها، كونها عملية تتحرى في المقام الأول نقل وتحويل نص أول يعتبر هو الأصل والمصدر إلى نص مكتوب ثانٍ بلغة مغايرة؛ وهو هنا مفهوم يندرج ضمن نوع من أنواع الترجمة يتحرى الصرامة اللغوية ومن ثم الوظيفة التواصلية.

بالإبقاء على السياق اللساني والأداء التواصلية الذي تلعبه عملية الترجمة نجد تعريفاً آخر لعملية الترجمة يتجاوز النقل الحرفي لطبقات المعنى المترسبة في ثنايا النصوص المنقول منها إلى لغة أو لغات أخرى؛ إلى "إحلال النص المكتوب بإحدى اللغات التي تسمى اللغة المصدر Source Language إلى نص يعادله مكتوب بلغة أخرى ويسمى اللغة المستهدف النقل إليها، أو باختصار

اللغة المنقول إليها Target Language" (دودين، 2009، صفحة 112)، وهو تعريف يضيف ميزة تخص مُؤدي عملية الترجمة ألا وهو المترجم، والتي تتمثل في قدرة ذلك الأخير على النقل الأمين ليس فقط للمعنى الأول وتقاليد اللسانية المستصاغ على نحوها، إنما بصرف النظر والتركيز على فحوى النص وجوهره، الذي لا يتسنى لنا تحقيقه إلا عن طريق خلق معادل لساني نصي؛ يضمن لنا عبه خاصية التكافؤ بين الوحدات اللسانية المنقول إليها وبين الوحدات اللغوية المنقول منها، لنشدان الغاية التواصلية التي تبدأ منها العملية الترجمية وتنتهي إليها، وحتى لا ننحرف عن خطى بحثنا الأساس لن نسهب في إيراد تعاريف إزاء موضوع الترجمة الأدبية بصفة عامة والمسيرة التطورية لها، إلا بما يخدم ويضيء الجوانب المعتمدة في موضوعنا.

3. الترجمة في السياق ما بعد الكولونيالي

حيثما ارتبطت مختلف الشعوب في صداقة أو عداوة، في سيطرة أو مقاومة فإنها تبني تفاعلاتها وصور بعضها عن بعضها الآخر، إلى حد كبير عبر الممارسات الخطابية وهي تحكي في القصص عن نفسها وعن شعوب أخرى، أمّا في طقوسها المتصلة بالتبادل وفي معاملاتها اليومية فإنّ خطابها يكون أساساً لإقامة الحدود بين مجموعات وتنظيم علاقاتها (تيموسكو، 2010، صفحة 30)، حيث لا خلاص لنا عندما نتكلّم عن أمم وشعوب متعددة تجيد استخدام لغات أخرى بفضل الترجمة وتقريبها حضارياً وثقافياً من بعضها البعض على شاكلة ممارسات خطابية، ففي هذا السياق بالذات يتولد معنا آخر لموضوع الترجمة يتعدى كونها "مجرد نقل نص من لغة إلى لغة ثانية؛ إلى نقل حضاري للنص الأول من حضارة إلى حضارة أخرى، أو من نسق ثقافي إلى نسق ثقافي آخر، وفي هذه الحالة يفترض ألا يكون النص المصدر منعزلاً عن سياقه الحضاري الأول الذي خرج منه ولا عن سياقه الحضاري الثاني الذي دخل فيه، على أن تكون عملية النقل هذه محملة بسياقات حضارية متعددة تجعل الترجمة نقلاً حضارياً، وليس مجرد استبدال لفظ بلفظ أو بعبارة من اللغة المصدر إلى اللغة الهدف" (فيدوح، 2009، صفحة 65).

يقعنا التصوّر السابق للتعريفين السابقين، في قلب العلاقة الجوهرية بين الترجمة كعملية نقل لطبقات المعنى من اللغة المصدر إلى اللغة الثانية المستهدفة، وبين التوجّه الصوري باعتباره أحد مبادئ الأدب المقارن وأكثرها رواجاً، هذا التوجه الذي يهتم بتقصي الأحكام والرؤى المرتسمة في ذهن وعقلية أمة من الأمم تخص أمة أخرى، المعاد تقديمها وقوليتها في إطار ثقافي معين، تسلك عدة مناهج عن طريق الترجمة لكن ليست الترجمة في معناها الأول؛ إنما الترجمة

الحضارية التي تتخذ من نقل الأبعاد الثقافية والحضارية للنص المنقول منه إلى ثقافة وحضارة ثانية ومن ثم إعادة تهيتها في البيئة الثقافية الجديدة هدفا لها، قصد إقامة رابطة تآزرية تلتحم فيها الشعوب بعضها ببعض.

ترتبط بهذا عملية الترجمة إذ ما اعتبرناها ممارسة خطابية تنغيا تقرب الشعوب بعضها من بعض؛ بعملية التفاعل الحضاري بين الأمم، تقارب بين معارفهم وتوحد من فضائهم الاجتماعية، حيث يجرى التصدي للمسائل المتعلقة بالترجمة من قبل علم اللغة الحديث "ومسائل تتعلق بالتكافؤ والنقل فيما بين اللغات، كما أن عملية الترجمة عامل أساسي وراء مفاهيم النحو التحويلي Transformational Grammar ، وفي الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا استعمل الأكاديميون الترجمة كاستعارة أو نظير لمحاولات أو إجراءات حقولهم، وجرى استعمال الترجمة كطريقة لتصوير العلاقات بين الثقافات وعلى وجه التحديد المواجهة مع الآخرة Alterity وآليات الإمبريالية والشروط الخاصة للعالم المعولم ما بعد الحداثي" (تيموسكو، 2010، صفحة 31)، إذ يحيلنا هذا المقطع إلى طبيعة العلاقة الحوارية، الانزياحية التفاعلية بين قطبي الثنائية الغيرية "الأنا" و"الآخر" المتأرجحة بين حدي التقارب والتجاذب المثقلة بالتحيزات الكامنة في كنف الفعل الترجمي خصوصا فيما تعلق الأمر بأدواره التقليدية وهدفه الأوحده البريء نسبيا المتمثل في إقامة رابطة تآزرية تلتحم فيها الثقافات بعضها ببعض.

1.3 البعد الإمبريالي للترجمة

يُخال للدارسين من الوهولة الأولى المترسخ لدى ذائقهم العرف البحثي عدم وجود أيّة قرائن تصل بين الترجمة كعملية نقل طبقات المعنى المترسبة في ثنايا النصوص وبين البعد الوسائطي الإمبريالي وكذا توسيع الخارطة السياسية له الذي تواطأت فيه العملية الترجّمية وروجت له في أحيان كثيرة كبديل عن التبادل والتلاقح المعرفي من خلال النشاط المقارناتي، المعني بتفحص مدى مطابقة النص المترجم للنص الأصلي الأوّل واقتصاره الإحالة على قسم فرعي يشي ضمنيا بدونية نصوص مقابل نصوص نموذجية أخرى.

يظهر جليا هذا في تتبعنا لسلسلة المعاني الاشتقاقية التي تأخذها كلمة الترجمة والتي تأخذ مجرى التحويل، النقل واستعارة الملكية "وكان في مقدمة مهماتها الفكرية تقويض الفهم التقليدي للترجمة الذي يقوم على أساسه مفهوم المعجم ثنائي اللغة، والذي مفاده أن الترجمة بين لغتين ممكنة بسبب وجود مسبق للمعادل الفكري بين نظامين، المترجم منه والمترجم إليه"

(خطيب، 2001، صفحة 148)، حيث يجدر بنا في هذا المقام التنبيه إلى السياق والمهاد التاريخي والفكري الذي بزغت فيه الترجمة ودراساتها في العالم العربي، لقد كان ذلك تزامنا والتوسع الاستعماري لدول العالم، لكن ليس بمعنى الانتهاء عند هذا التصور فقط بل علينا تجاوز المرحلة التي أنتجته لأننا "ونحن منذ مطلع القرن الحادي والعشرين نرى أن الوقت بالتأكيد قد حان لكي ندرك أن حقبة تاريخية قد انتهت. وأن الكتابة لا تحدث في فراغ، بل داخل سياق، وأن عملية ترجمة نصوص من نظام ثقافي معين إلى نظام آخر ليس عملا حياديا، أو بريئا، أو شافيا. إنما الترجمة نشاط شديد التفجر والانتهاك، كما أن سياسات الترجمة تستحق اهتماما أكبر مما حظيت به في الماضي فقد قامت الترجمة بدور أساسي في التحولات الثقافية، وبينما نناقش العمليات الثنائية لممارسات الترجمة يمكننا أن نتعلم الكثير عن وضع الثقافات المستقبلية في علاقتها بثقافات نص المنبع" (باسنيت، 1999، صفحة 181)، لتكسب بهذا الترجمة دورها التوسطي وتغدو بمثابة أداة تطويرية تقرب الآداب بعضها ببعض وكذا الشعوب التي أنتجت تلك الآداب وتسهم في عملية تكوين فهم شامل للطبيعة والخصوصيات الثقافية للأمم المنقول عنها.

لقد "ربط بعض الدارسين نشأة الترجمة بالحاجة التبشيرية، حتى إن مصطلح الترجمة والترجمان بالعربية يلحان إلى منى الانتقاص والتّحريف الذي يعكسه اللفظ الفرنسي المترجم truchement، لارتباط الترجمة بالأغراض الأيديولوجية التي تنحو إلى التلاعب بمفاهيم اللغة العادية" (حضري، 2023)، عملية من هذا القبيل تُرجع أصل الترجمة إلى حاجة الحملات التبشيرية حين زعم فتوحها الثقافية، من شأنه توجيه النظر إلى الأبعاد الأيديولوجية المتوارية خلف الممارسات الخطابية لطبيعة الفعل الترجمي التي سرعان ما تخرج بالترجمة عن مسعاها البريء نسبيا المقيم لصلات تقاربية بين الثقافات، وتتحول إلى آلية موظفة لإضفاء الصبغة الشرعية المعرفية للبعد الإمبريالي الهيمني الذي تستبطنه عملية الترجمة، عن طريق النشاط المقارناتي وتفعيل عنصر اللغة المهيمن هذا الأخير الذي بدوره يُعلي من قيمة النص الأصلي الأول واقتصاره الإحالة على قسم فرعي يشي لنا ضمنا بدونية نصوص مقابل نصوص نموذجية أخرى، تصبح مرتعا لاشتغال النسق اللغوي المهيمن ويُخضع باقي اللغات المستهدفة إلى تقبل النموذج اللغوي، الثقافي، الفكري ومن ثم إحلاله محل اللغة المصدر.

من هذا المنظور لا نغالي إذا قلنا بأن الترجمة تمثل في جانب منها غاية التقارب الذي يتطابق مع التبشير، ويقتضي هذا في ميلها عن الصواب إلى النزعة التدميرية بالنسبة إلى الاستيلاء

على قدرات الذات الوطنية. ومن ثم، لم تعد الترجمة في نظرنا رسالة إيجابية لدوافع ثقافية فقط، بل ربما انزياحها في تبني النزعة التبشيرية، أوقعها في الحيز السلبي لوظيفتها، وأدخلها في موقع العدوانية مع الذات بالمساهمة في الاستيلاء على الثروات الوطنية (فيدوح، 2009، الصفحات 143-144)، من هنا تتجلى قيمة الأدب المقارن في كشف وفضح البنيات التي تشتغل وفقها العملية الترجمية من داخل المنظومة الثقافية للنصوص المحولة على مستويات متباينة.

من وجهة نظرنا فإنّ العملية الترجمية توافقا مع دورها التوسطي قد كانت في المقام الأول بمثابة أداة للتبشير موظفة جنبا إلى جنب مع وسائل الاستعمار التقليدية، وهي رؤية يحكمها الانزياح اللغوي والجمالي الحاصل على مستوى الثقافة المستقبلية، حتى تغدو بهذا عملية الترجمة "في ظل هذا الوضع تُسخر لضمان توجه تشكيل الهوية نحو التعامل مع هذا المنطق، فالحرف المهيمن يستخدم الترجمة من باب الإدماج والاستيعاب، والطرف المغلوب يستخدمها من باب الحفاظ على الوجود، ولذلك لا يستقيم بحال أن تكون استراتيجية الطرفين متماثلة في استخدام الآلية الترجّمية، ولذلك لا يُستغرب أن تظهر من جديد ترجمة الشروح والتلخيصات من جهة، والترجمة الحضارية من جهة أخرى، ولكن هل في وسع الطرف المغلوب باعتباره الأنا أن يبتكر أو يفعل الآلية الأنسب لمواجهة الطرف وبالتالي يبطل عمل استراتيجية الهيمنة وآليتها الترجّمية" (حضري، 2023) وهو تحوّل مهم ينزاح بالعملية الترجّمية وتطور دلالاتها في الحقل المفاهيمي؛ أي من معناها اللساني إلى وظيفتها المقاومة، هذا الحدث الذي يتطلب منا إمعان النظر وإعادة التفكير في موضوع الترجمة وكذا أدوارها التقليدية نظرا للأبعاد الثقافية التي تختزنها الرسائل اللسانية المنقولة من حقل جماعة لغوية إلى حقل جماعة لغوية أخرى، بهذا يمكننا الحديث عن العملية الترجّمية باعتبارها أداة مقاومة يستأنس إليها خاصة الأنا المستضعف لمجابهة عنف الآخر اللغوي الذي يسعى جاهدا لإمحاء خصوصياته الثقافية.

2.3 الترجمة والإمبراطورية

يُزَاج لنا "روبنسون دوغلاس" في كتابه "الترجمة والإمبراطورية: نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية" 1997، ترجمة ثائر ديب 2005 (المجلس الأعلى للثقافة)، بين الترجمة والإمبراطورية التي يُخال للقارئ من الوهلة الأولى المترسخ لدى ذائقته التقليد البحثي عدم وجود آية قرائن تصل بين الترجمة كعملية نقل طبقات المعنى المترسبة في ثنايا النصوص وبين الإمبراطورية التي هي عبارة عن كتل عسكرية، سياسية واقتصادية ضخمة تطاول قرونا من الزمن؛ الترجمة والإمبراطورية

"مصطلحان لا يبدوان متلازمين لأول وهلة، فالمصطلحات الأكثر شيوعاً التي اقترنت بالترجمة خلال ألفي سنة أو أكثر هي: المعنى، التكافؤ، السداد وما إلى ذلك، وهي مصطلحات تقنية محض تعنى بالكيفية والتقويمية مما يشير إلى نشاط أو فعالية تجرى على الكلمات، الجمل، والنصوص الكاملة، والنظرة التقليدية للترجمة هي نظرة ميكانيكية: تراها عملية نقل للمعنى متجردة عما هو شخصي من نص مصدر إلى نص هدف دون تغيير كبير" (دوغلاس، 2005، صفحة 21)، بمعنى أن الترجمة قد ظلت على مدار قرون حبيسة للتصور الساذج الذي يدعي الأمانة والبراءة حين عملية نقل الوحدات اللغوية من لغة إلى لغة ثانية لضمان مبدأ التكافؤ خلال العملية الترجمية الأدبية والثقافية، وهو تصور في نظر "دوغلاس" عملي بحت، لينهنا بعدها إلى النظرة الانتقاصية التي تلاحق المُجَسِّدَ الفعلي للفعل الترجمي، والمقصود به هنا المترجم؛ الذي يُطارد المعنى وما يحدث له من تغيرات على المستوى الثقافي حين سيرورته الانتقالية من نظام لغوي إلى نظام لغوي آخر، فما هو الخيط الدوغلاني الذي تتبين من خلاله الحدود الفاصلة بين عملية الترجمة وبين الإمبراطورية؟

يعتبر "روبنسون دوغلاس" أن ميلاد الترجمة والإمبراطورية، بل حتى دراسة الترجمة بوصفها إمبراطورية (نظام سياسي، عسكري، واقتصادي ضخيم يطال هيمنته رقعة جغرافية أخرى) كان في الفترة التاريخية الممتدة بين أواسط ثمانينات القرن العشرين وأواخرها، انطلاقاً من تبني التصور الذي مفاده أن الترجمة قد كانت على الدوام سبيلاً من سبل للفتح والهيمنة الإمبراطورية لا مناص منه لإحداث التفاعل الثقافي الممزوج والمتلون بدماء الجماعات المستضعفة التي تمّ السيطرة عليها، "فالأمر لم يقتصر على احتياج الفاتحين الإمبراطوريين الأكيد إلى إيجاد طريقة فعالة للتواصل مع رعاياهم، بل كان عليهم أيضاً أن يطوروا طرائق جديدة في إخضاعهم وتحويلهم إلى رعايا طبيعيين" (دوغلاس، 2005، صفحة 24)، وساعدتهم في ذلك الإرساليات الأجنبية التي ضمنت التراتب الهرمي الذي من شأنه الإعلاء من لغة المستعمر في مقابل دونية لغة المستعمر، هذه الفئة من المترجمين المنتقاة بعناية فائقة خدمة للمشروع الإمبريالي وتوسيعاً للخارطة السياسية له، يتمّ اختصار ولائهم عن طريق معاناة مدى قدرتهم على الحط من اللغة المحلية للأمة المستهدفة في مقابل الإعلاء من سلطة اللغة الفاتحة، لعلّ الأمر الذي راهن عليه الاستعمار ومنطقه الهيمني بالدرجة نفسها التي راهن عليها بقية الإمكانات المادية؛ أي أنه قد طوّر من الأساليب الاستعمارية مُركباً على عملية الترجمة وولاء المترجمين المدربين على نحو المؤسسة

الاستعمارية، بحيث يسخرون مجهوداتهم وكل إمكاناتهم اللغوية في سبيل خدمة القوة الإمبراطورية الفاتحة.

ولكي يتضح الطرح المسبق في هذا الشأن نستجلب مقولة المؤرخ الفرنسي شارل اندري جوليان Charles André Julien "إن المترجمين الفرنسيين في الجزائر إبان استعمارها كانوا يحملون رتبا عسكرية، وأنهم كانوا يعملون بالتعاون مع الإدارات التابعة للجيش الفرنسي" (جوليان، 1976، صفحة 59)، وعليه فإنَّ توظيف هكذا فئة من المترجمين جنبا إلى جنب مع وسائل الاستعمار، متعددة النظم الذين يستكشفون السياسات الكبرى الخاصة بالترجمة من حيث الأنظمة الثقافية والأدبية من شأنها العدول بالنشاط المقارناتي عن هدفه الأسمى المتمثل في إقامة رابطة تآزرية تلتحم فيها الثقافات بعضها ببعض إلى وسيط هيمني يغذي النزعة الإمبريالية ويوسع من خارطتها.

يأتي كتاب "شعرية الإمبريالية" للمؤلف "إيريك تشيفيتز" على الرغم من صغر حجمه وغزارة مادته العلمية، كمحاولة جريئة وطرح جدي يختص بالأدبيات الأمريكية على غرار سابقه من المؤلفات التي تصدت لموضوع الترجمة في السياق الما بعد الكولونيالي، ففي سلسلة المعاني الاشتقاقية التي تتخذها كلمة "الترجمة" ويطاردها "إيريك تشيفيتز" بوصفها استعارة ونقلًا وتحويلا للملكية، فإنَّ الإمبراطورية تسنح للمستعمر بأن يدرج في قالب جمالي تعقيدات الاختلاف اللغوي والثقافي، إذ يُرجع قصة الترجمة والإمبراطورية إلى ما يدعوه التطواف الاستكشافي التشيفيتزي "مشهد الإرشاد الأوَّل" أو "مشهد الإرشاد الكولونيالي" المستمد من الأسطورة الشيشرونية، وهو المشهد "الذي يقوم فيه زعيم فصيح بإقناع شعب همج بأن يخضعوا إلى أوامر القانون والثقافة" (دوغلاس، 2005، صفحة 100)، هذا الجرد الأسطوري المقتضب لقصة شيشرون المتلخص في مجيء رجل متحضر يمتلك ناصية المعرفة والتطور ومن ثم يقوم بتلقين معارفه إلى شعب همجي لا يفقه في الشؤون الحضارية شيئا أي تلك النقلة من ضفة البدائية إلى ضفة الحضارة؛ يُضمِّر البعد الهيمني للغة والثقافة، لتطُّع الترجمة في هذا العالم الجديد المغزو إلى احتواء كلِّ اللغات الهامشية قسرا بغية إخماء اختلاف بقية اللغات أو تهميشه كراهية تهميشا كليا.

يتكئ "تشيفيتز" في تأسيسه لتصوره المغاير المطابق في المقام الأوَّل بين الترجمة والإمبراطورية والبرهنة على صحة أطروحته؛ على الأصل أو الجذر اللغوي الذي تنحدر من الترجمة

والاستعارة، إنَّهما بحسبه "مستمدتان من اللاتينية أو اليونانية وكانتا تستخدمان كمترادفتين تقريبا في التراث البلاغي الممتد من العصور القديمة وحتى النهضة، أما الاستعارة والترجمة فهما تشتملان على تطواف أبعد من حدود الصحة أو الملكية صوب ما هو أجنبي وناءٍ وغريب" (دوغلاس، 2005، صفحة 101).

فضلا عن أنَّ في الخيال البلاغي الأوروبي الخطيب أو الزعيم الفصيح هو بالتعريف من يتكلَّم لغة مختلفة عن لغة الجماهير "العيبة" أو غير المتعلمة، وحتى لو كان كل من الخطيب والهمج في أسطورة شيشرون من القبيلة ذاتها وكانوا قد نشأوا على النطق باللغة ذاتها، فإنَّ سيرورة تطوُّر العقل والكلام الفصيح تكون قد غيرت كلام الخطيب بصورة جذرية وجعلته لغة مختلفة جوهريا (دوغلاس، 2005، صفحة 103)، تكون بهذا الأسطورة الشيشرونية المستترة خلف عباءة الرسالة التحضرية، ماهي سوى رسالة كولونيالية مُشَقَّرَةٌ أيديولوجيتها تتواتر وتتجدد مضامينها عبر التَّاريخ، تصبو في رؤيتها إلى إقامة قوَّة إمبراطورية عظمى تتوحد في كونية لغتها كلَّ اللُّغات المحلية.

4. التفاعل الثقافي؛ تفاعل الأطراف مع المركز

لطالما هدفت الترجمة إلى وصل الثقافات بعضها بعض وفك عزلتها حتى تشركها في تاريخ الفكر الإنساني، بحيث هذا التقارب الحاصل بين الثقافات المتعددة نجم عنه تبادل للقيم الثقافية كإحدى أوجه التأثير والتأثر الذي لعبت فيه الترجمة دور الوسيط التواصل، إلَّا أنَّه يعترض الباحث وأخص بالذكر هنا الباحث العربي حين مقارنته لموضوع التفاعل الثقافي، بدءًا بالتحديد والضبط المفاهيمي للمصطلح وانتهاءً إلى اشتغال مضامينه الدلالية؛ مُعْضِلَةً مكيئة تحوُّل بينه وبين تحديد فحيص لمصطلح "التفاعل الثقافي" وما نجد له من مقابلات عدة في الثقافة العربية، مرد هذا الالتباس المفاهيمي في المقام الأوَّل إلى غربة المصطلح، أي أنَّ المصطلح هو غربي بالأساس ودخيل عن الخطاب العربي لعلَّ خير مثال ندلل به على صحة التصوُّر السابق الذي يتضمن الفوضى المصطلحية والمفاهيمية للتفاعل الثقافي هو كثرة المقابلات إذ جرى تداوله مرة على أنَّه المُقَابَسَةُ الثقافيَّة/ استدماج ثقافي/ المُثاقفة/ Interculturation / Acculturation / Transculturation، وهي كلها مرادفات تتعالق دلالاتها وتكاد تتطابق عربيا.

يُشير مصطلح "التفاعل الثقافي" في المعاجم العلمية المتخصصة، خصوصا تلك الأنثروبولوجية والاجتماعية الثقافية منها؛ إلى عملية التبادل الثقافي بين ثقافتين تختلف إحداها

عن الأخرى، فإنَّ أستاذ علم الأديان المقارن في جامعة ستوكهولم السويدية "ايكه هولتكرانس" يُسهب في إيضاح مدلولات المصطلح مُتتبعًا إياها منذ نشأتها إلى التغيرات الحاصلة على مستوى مضامينها، مُفردًا لها في معجمه الشهير "قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور" قرابة عشر صفحات أو يزيد، ويقصد به -التفاعل الثقافي- "عملية التغير خلال الاتصال الثقافي الكامل، والمقصود من مصطلح الاتصال الثقافي هنا الاتصال بين ثقافتين الذي يؤدي إلى زيادة أوجه التشابه بينهما في معظم الميادين الثقافية" (جراد، 2016، صفحة 67)، وهي عملية اتصال ومشاركة دائمة تتيح للفرد أو جماعة ثقافية معينة اكتساب قيم ثقافية وأنماط فكرية مُغايرة تُعزِّز من انتمائهم واختلافهم الثقافي بدرجات متفاوتة رغم أنَّ أغلبها يُضمَر مسارًا واحدًا إكراهيًا لهذه العملية التي تكون مُوجَّهةً من المركز إلى طرف آخر هامشي أدنى منه حضاريًا.

بداية يدل مصطلح "التفاعل الثقافي" أو "الثقافة"، الذي ابتدعه عالم الاجتماع الكوبي "فرناندو أورتيغ" عام 1978 وروج له بعدها الناقد الأورو-جوبيني "إنجيل راما" في الدِّراسات الأدبية ليدل به على مناطق الاتصال: أي تلك الفضاءات الاجتماعية البينية التي تلتقي فيها الثقافات المتميزة، فتتصادم وتتصارع فيما بينها، وفقا لعلاقات تراتبية غير مُتماثلة تهيمن فيها الثقافة المركزية على الثقافة الهامشية المحلية وتُخضعُها لنظامها الثقافي طوعا أو كراهية، وبشكل عام يشير إذا مصطلح "التفاعل الثقافي" "إلى التأثيرات المتبادلة لطرق التمثيل والممارسات الثقافية عل اختلاف أنواعها في المستعمرات والحواضر الكولونيالية، ومن ثم هو بعبارة "لوز برات" ظاهرة لمنطقة الاتصال، كما استخدم الإثنوغرافيون هذا المصطلح لوصف كيف تعتمد الجماعات الخاضعات أو الهامشية إلى انتقاء مواد تنتقل إليهم من الثقافة المهيمنة أو الحواضرية وابتكار شيء جديد منها" (بيل أشكروفت ، 2010، صفحة 340)، يتجاوز هذا التعريف المدلول الأولي الإيجابي لعملية التبادل الثقافي واكتساب الخبَرات الثقافية كمشروع حضاري إنساني مُشترك؛ إلى الحتمية التاريخية من المنظور الأنثروبولوجي ألا وهي الاستعمار بمعنى أنَّ الثقافة العربية لم تكن تملك إرادتها الحرة والمُطلقة لتفعيل الاتصال الحضاري المباشر ومن ثم تغيير أنماطها الثقافية استجابة لمعطيات العناصر الثقافية المُتبَاينة، ليتحوَّل بهذا التأثير المتبادل بين كلٍّ من المركز الحواضري والهامش، وتبعًا للتوجُّه الأنثروبولوجي يكون التأثير بين طرفي العملية الاستعمارية المستعمر/ المستعمر غير متكافئًا نسبيًا، نظرا للطموح الإمبريالي الذي يسعى إليه الاستعمار مُسخِّرًا في ذلك كلَّ إمكاناته سواء المادية منها أو الفكرية للسيطرة الكلية على مجمل مناحي الجماعات المستهدفة والثقافية أبرزها، من هنا كانت مقولة "التفاعل الثقافي" المحورية في دراسات

الترجمة والأدب المقارن شعارا زائفا؛ أي أنّها شكل من أشكال الاستيلاء على القيم الثقافية المتميزة، وكأنّها ضرب من ضروب الغزو الثقافي.

يعود ظهور مصطلح "المثاقفة" Acculturation بالتحديد إلى عام 1880 "فالسابقة (A) تدل على القرب، وقد استعمله "جون ويسلي بول John Wesley Powell" لأول مرة، وكان الناقد البريطاني "ماثيو آرنولد Matthew Arnold" قد عرف الثقافة بأنها المثال الأعلى الكلاسيكي للكمال البشري بدلا من المعرفة السطحية للغتين الإغريقية أو اللاتينية في كتابه "الثقافة والفوضى" عام 1869" (المناصرة، 2015، صفحة 173)، إلّا أنّ هذا لا ينفي هيمنة الدارسين الأنثروبولوجيين الإنجليز على تأويلات مصطلح "المثاقفة" طيلة القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين، وحتى تُخَفِّفَ المجامع الفكرية الإنجليزية المعنية منها بعلم الاجتماع من وطأة التأويلات السلبية التي لازمت مصطلح "المثاقفة" أو "التفاعل الثقافي" كما نتداوله في بحثنا؛ قد "اضطر مجلس البحث في العلوم الاجتماعية في الولايات المتحدة عام 1936 إلى تصحيح تعريف المثاقفة على النحو التالي: المثاقفة هي مجموع الظواهر الناتجة عن احتكاك مستمر ومباشر بين مجموعات أو أفراد تنتمي إلى ثقافات مختلفة، يؤدي إلى تغييرات في الأنماط الثقافية الأولية للجماعة أو الجماعات، حيث لا تؤدي المثاقفة إلى طغيان ثقافة على أخرى، وإنما تؤدي إلى ظهور ثقافة جديدة تحمل في طياتها خصائص الثقافتين المتزاوجتين دون المساس بمقومات الهوية المحلية وثوابتها" (المناصرة، 2015، الصفحات 173-174).

فمن وجهة نظرنا أنّ هذه الفوضى الدلالية لمصطلح "التفاعل الثقافي" أو "المثاقفة"، هي إرباك مفاهيمي مُتعمد؛ لأنّنا نجد هذا التعدد المصطلحي لمفهوم واحد حتى في البيئة الغربية التي أنتجته على سبيل الترادف أو البدائل، ربما هي استراتيجية ثقافية تلجأ إليها الدول الحواضرة المركزية لتهديب وتطويع المفاهيم المشحونة بالأبعاد الإيديولوجية، ومصطلح "التفاعل الثقافي" هنا ليس بمنأى عن هذا التوجّه، إذ على الرغم من المجهودات المبذولة من قبل المؤسسات الفكرية لتغطية زيف مشاريعهم وشعاراتهم الكونية البراقة التي يتوسلون عبرها إقامة مشروع حضاري إنساني مشترك قوامه عملية التأثير والتأثر المتبادل بين جماعتين ثقافيتين متميزتين، هذه الغاية المنشودة سرعان ما تتبدد أوهامها ما إن ترتطم بالوقائع التاريخية الحتمية كان الاستعمار متصدرا إياها، فبالإتكاء إلى المنطق الاستعماري الذي يفرض علاقة تراتبية غير متكافئة بين طرف قوي مُهيمن يفرض سلطته على طرف آخر مستضعف يُرغمه على الخضوع والاستسلام لأنظمتها

السياسية، الاقتصادية والثقافية، من هنا يتبين لنا استحالة صمود ومقاومة مقولة "التفاعل الثقافي" البريئة نسبياً التي تدعي تبادلية التأثير بين طرفين ثقافيين غير متكافئين من الأساس أمام المد الإمبريالي أو الغزو بكل ضروبه الممكنة.

تبعاً للشرط الكولونيالي الذي أملتة الحتمية التاريخية للاستعمار، فإنه يتسنى لنا القول إزاء مقولة "التفاعل الثقافي" بانسياقنا طبعاً وراء تعريفاته المبهمة التي تحيل إلى ميزة التبادل الثقافي المتكافئ، أي أخذ العناصر الثقافية وإعطائها بالقدر نفسه على النحو الذي يحول بين انصهار قيم الأنا الثقافية المستضعفة في بوتقة الآخر المركزية أو العدول عنها ومقاومتها بالرفض التام ممّا يؤدي إلى انغلاقها وتوقعها على ذاتها؛ إنَّ المثاقفة/ التفاعل الثقافي ما هو إلّا تجلٍ لصور الاحتكاك الثقافي بين ثنائيتين الأنا والآخر بغية بلورة رؤية كونية للتاريخ الإنساني المشترك.

في سياق الحديث ذاته ترشدنا مقولة "التفاعل الثقافي" إلى مُعضلة أخرى مكينة تضرب بجذورها عمق تاريخ الفكر الإنساني العتيد تُمجّد خاصية الاختلاف والتمايز، تكُنّ في عدم اعتراف الأنا الذي تتسيدته الذات الغربية المُتمركزة حول نفسها، بالآخر العربي الذي لا يقل عنها شأواً، فهي حتى وإن ادعت إقامة حوار ثقافي متكافئ بين الحضارة المقابلة لها، تبقى رهينة نرجسيتها الإبتيمية وتفوّق قيمها على غرار قيم الشعوب الأخرى الثقافية، معنى هذا أنّ المثاقفة تتأسس وتقوم وفقاً لتصوّر الفيلسوف "دافيد هيوم" على "ثنائية المعلم الشريف، والتلميذ المحتمل؛ إذ على الأوروبي أن يعلم غيره القيم التي يحتاجها، وأن يتوسل العقاب الملائم كي يعلم التلميذ القيم المتفوقة وإذا كان "هيوم" قد وضع التفاوت في حقل القيم، فإن "بيرنارد لويس" -وبعد أكثر من قرنين- رفع التفاوت إلى مقام المواجهة النهائية متحدثاً عن النصر، والهزيمة، والسيطرة، وهكذا ظلت المثاقفة في اتجاه واحد" (لبصير، 2018، صفحة 102)؛ اتجاه أحادي المنزع يهتدي إلى خاصية التفاوت لا يحاور إلّا نفسه، يزعم امتلاك المعرفة المطلقة ومن ثم الحق في تعليم الشعوب المفتقرة لتلك المعارف والقيم الثقافية فقط وفق ما تمليه الحاجة الكولونيالية، وضماناً لاستمرار تبعية الدّول الغربية لها داخل المعرفة وخارجها.

5. خاتمة البحث

في سياق ختام دراستنا وكمحاوله للإجابة عن الإشكالات المطروحة في مستهل ورقتنا البحثية انتهينا إلى بعض النتائج يمكننا حصرها في النقاط التالية:

- إنَّ التَّرجمة باعتبارها عملية نقل طبقات المعنى المترسبة في ثنايا النُّصوص قد تواطأت من خلال النشاط المقارناتي مع البُعد الوسائطي الإمبريالي، وسعت من الخارطة السياسية له وروجت له في أحيان كثيرة كبديل عن التبادل والتلاقح المعرفي تزامنا والتوسع الاستعماري لدول العالم.
- لقد كانت العملية التَّرجمية توافقا مع دورها التوسطي فضلا عن تطوُّر دلالاتها في الحقل المفاهيمي أي من معناها اللِّساني إلى وظيفتها الإمبريالية، نظرا للأبعاد الثَّقافية التي تختزنها الرسائل اللِّسانية المنقولة من حقل جماعة لغوية إلى حقل جماعة لغوية أخرى؛ بمثابة أداة للتبشير موظفة جنبا إلى جنب مع وسائل الاستعمار التقليدية، وهي رؤية يحكمها الانزياح اللُّغوي والجمالي الحاصل على مستوى الثَّقافة المستقبلية، حتى تغدو بهذا عملية التَّرجمة استراتيجية هيمنية تخوِّل الثَّقافة المركزية من استيعاب كلِّ الثَّقافات الهامشية داخل بوتقتها الحضارية.
- على الرغم من الإرباك المفاهيمي المخيم على مصطلح "التفاعل الثَّقافي" وتبعا للشرط الكولونيالي الذي أملتته الحتمية التَّاريخية للاستعمار، فإنَّه يتسنى لنا القول إزاء مقولة "التفاعل الثَّقافي" بانسياقنا طبعا وراء وهج تعريفاته البراقة التي تحيل إلى ميزة التبادل الثَّقافي المتكافئ، أي أخذ العناصر الثَّقافية وإعطائها بالقدر نفسه على النحو الذي يحول بين انصهار قيم الأنا الثَّقافية المستضعفة في بوتقة الآخر المركزية أو العدول عنها ومقاومتها بالفرض التام ممَّا يؤدي إلى انغلاقها وتقوقعها على ذاتها؛ أنَّ المثاقفة/ التفاعل الثَّقافي ما هو إلَّا تجلٍّ لصور الاحتكاك الثَّقافي بين ثنائيتين الأنا والآخر بغية بلورة رؤية كونية للتَّاريخ الإنساني المشترك.
- بالاتكاء إلى المنطق الاستعماري الذي يفرض علاقة هرمية للسلطة غير متكافئة بين طرف قوي مهيم يفرض سلطته على طرف آخر مستضعف عن طريق اللُّغة المهيمنة ويرغمه على الخضوع والاستسلام لأنظمتها السياسية، الاقتصادية والثقافية، يتضح لنا استحالة صمود ومقاومة مقولة "التفاعل الثَّقافي" البرينة نسبيا التي تدعي تبادلية التأثير بين طرفين ثقافيين ضمن سياق الغيرية غير متكافئين من الأساس أمام المد الإمبريالي أو الغزو بكلِّ ضروبه المُمكنة.

6. المراجع:

- المناصرة، عز الدين. (2015). *المثاقفة والنقد المقارن "منظور جدلي تفكيكي"*. عمان، الأردن: الصايل للنشر والتوزيع.
- باسنيت، سوزان. (1999). *الأدب المقارن "مقدمة نقدية"*. القاهرة، مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- بيل أشكروفت، وآخرون. (2010). *دراسات ما بعد الكولونيالية "المفاهيم الرئيسية"*. القاهرة، مصر: المركز القومي للترجمة.
- تيموسكو، ماري. (2010). *الترجمة في سياق ما بعد كولونيالي "الأدب الإيرلندي المبكر في الترجمة الإنجليزية"*. القاهرة، مصر: المركز القومي للترجمة.
- جراد، خلف محمد. (2016). *العلاقة الإشكالية بين المثاقفة والغزو الثقافي في الخطاب العربي المعاصر*. مجلة المستقبل العربي (العدد 176. 78-66) دمشق، سوريا.
- جوليان، شارل أندري. (1976). *إفريقيا الشمالية تسير "القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية"*. جزائر العاصمة، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- حضري، جمال. (2023, 12 16). *العولمة السرية للقيم. تم الاسترجاع من الرابط* <https://www.ofouq.com>.
- خطيب، حسام. (2001). *الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة*. الدوحة، قطر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث.
- دودين، ماجد سليمان. (2009). *دليل المترجم الأدبي "الترجمة الأدبية والمصطلحات الأدبية"*. عمان، الأردن: مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع.
- دوغلاس، روبنسون. (2005). *الترجمة والإمبراطورية "نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية"*. القاهرة، مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- عناني، محمد. (2003). *نظريات الترجمة الحديثة "مدخل إلى مبحث دراسات الترجمة"*. القاهرة، مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر "لونجمان".
- فيدوح، ياسمين. (2009). *إشكالية الترجمة في الأدب المقارن "ألف ليلة وليلة نموذجاً"*. دمشق، سوريا: دار صفحات للدراسات والنشر.
- لبصير، نور الدين. (2018). *المثاقفة بين غياب الأنا وحضور الآخر*. الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية. (العدد 20. 105-97). شلف، الجزائر.